

بورتريه الزعيم السياسي كتاب "هكذا تكلم محمد بنسعيد..." نموذجاً

جعفر عاقيل

تكاد تُجمع الدراسات التي تناولت البورتريه الفوتوغرافي بصيغة عامة وضمنه البورتريه السياسي، على أنه صورة موجزة ومكثفة تعرفنا بالموضوع المُصوّر ومميزاته. بمعنى آخر، كل ما من شأنه أن يرسم لنا خصوصياته الفيزيولوجية (كقسمات وجهه وطبيعة نظراته وملامح خلقته) وسيكولوجيته (حالاته النفسية ووضعياته المزاجية) وأسلوبه في الحياة (كطريقة لباسه وتسريحة شعره وحركات جسده) ثم انتماءه الاجتماعي (كإشارات ملبسه وتصميم أزيائه ونوعية إكسسواراته). تدفعنا هذه التحديدات مجتمعة إلى التساؤل عن أشكال الحضور أو التظاهرات التي تتخذها هذه العناصر والمكونات، أو بعض منها، في البورتريهات التي تنقل لنا صورة الزعيم السياسي المغربي.

ولإجابة عن هذه الأسئلة، سنحاول تقديم بعض الملاحظات حول التمثيلات والمظاهر التي يحضر بها بورتريه الزعيم السياسي ورمزيته، من خلال مجموع الاقتراحات والأمثلة والأشكال والنماذج والمحتويات الفوتوغرافية التي يقترحها علينا كتاب "هكذا تكلم محمد بنسعيد..."⁽¹⁾. إن اختيارنا لهذا المتن يحكمه سببان: الأول، المكانة السياسية والقيمة الرمزية لشخصية بنسعيد آيت إيدر في المشهد السياسي المغربي. أما السبب الثاني، فهو العدد الهام والمتنوع للصور الفوتوغرافية المدرجة في هذا الكتاب.

وانطلاقاً من هذين الاعتبارين، سنتساءل هل نجحت "الاختيارات التقنية" و"المقاربات البصرية" و"المرجعيات الفكرية" و"التصاميم الفنية" المتبعة في انتقاء هاته البورتريهات من تقديم وتقريب صورة بصرية مكثفة وموثوقة ومُشَبَّعة ومؤتمنة للقارئ عن شخصية آيت إيدر، أم أنها أخفقت في ذلك (2) ؟

يمكن توزيع فوتوغرافيات الكتاب إجرائياً إلى ستة محاور أو سجلات أو أجناس من البورتريهات؛ فهي تارة شخصية، وتارة أخرى عائلية ومرة جماعية ورَفَّة رسمية، وحيناً إدارية وحيناً آخر بورتريهات ملتقطة باستديوهات. وبالرغم من أن هذه الفوتوغرافيات تكشف لنا، وبمسافات متنوعة، عن علاقات آيت إيدر العائلية (الصور التي تمثله مع أفراد عائلته الصغيرة والكبيرة) والاجتماعية (الصور الحميمة مع أصدقائه) والسياسية (الصور التي تمثله بجانب ملوك المغرب ومع رؤساء الدول العربية وفي صف الزعماء السياسيين المغاربة منهم والأجانب). وبالرغم من أنها تُعرِّف، وبمستويات متفاوتة، بحياته الملامى بالتجارب والغنية بالأحداث والمشوقة بالمغامرات والطريفة بالمستملحات، فإن قراءتنا ستقتصر فقط على جنس البورتريه الشخصي وحده. لأننا نرى فيه النموذج الأقرب والأوفى إلى تشخيص ملامحه والتعبير عن خصوصياته ومزاجه.

وسيميل اختيارنا أساساً إلى تقديم قراءة لبورتريه غلاف الكتاب مع مقارنته من حين لآخر ببورتريه الصفحة الخامسة عشرة منه، ثم بورتريه الصفحة الثانية والأربعين. وذلك لأمرين: الأول، أنهما يمثلان جنس البورتريه الشخصي. والثاني، لأن هذه البورتريهات الثلاثة، بالرغم من انتمائها إلى ثلاث مراحل متباعدة من حياة شخصية آيت إيدر، فهي تتكامل وتتفاعل وتتجاوز فيما بينها. بل أكثر من ذلك، تجمعها بعض الخصائص المشتركة، يمكن تلخيصها في فكرة تقديم صورة موجزة عن مسار حياته وتجربته السياسية،

بدءاً من فترة أحلام الشباب مروراً بطور العمل السياسي الميداني ومخاطره وصولاً إلى مرحلة النضج والزعامة. فإذا أخذنا مجموع هذه البورتريهات وحاولنا تركيبها كرونولوجياً، سنجد أنها تحكي بلغتها وأسلوبها ومضامينها الخاصة وقائع وأحداثاً وحالات تجسد مستويات الوعي السياسي عند آيت إيدر والتجارب والأخطار التي صادفها خلال مساره وأيضاً الحدود التي يصممها للالتزام السياسي.

يشكل غلاف الكتاب، كما هو متواضع عليه، بمكونه اللفظي والأيقوني عتبة أساسية في التواصل مع قارئه. بمعنى آخر، إنه الباب الذي يعبر من خلاله القارئ إلى محتويات الكتاب ومضامين صفحاته. بل يمكن القول إنه الواجهة الأولى التي يطل من خلالها الكتاب على قارئه، فتقع إما الألفة أو النفور. فالهواجس التي تحرك مصممه كانت دائماً، ولا تزال، يغلب عليها الطابع الإبلاغي والتواصلي. ذلك أن الرهان في هذا المقام هو تقديم كتاب ناجح بصرياً وفنياً، وأيضاً، وهذا هو الرهان الأكبر، استمالة القارئ واستدراجه للاقتناع بأهمية الكتاب وقيمه ومن ثم اقتناؤه. وبالرغم من أن الوضع في حالتنا هاته مختلف جداً، لأن شخصية آيت إيدر لا تحتاج إلى كل هذه الإواليات والاستراتيجيات والاجتهادات، ذلك أن مسار الرجل ومواقفه ونضالاته أبلغ وأكبر من استدعاء كل هذه الحثيات والسياقات والوقائع. غير أن هذا لا يمنع من الاحتفاء بهذا العمل احتفاءً بصرياً باذخاً يليق بحجم المسار السياسي لصاحبه وقيمه الرمزية في هذا الوطن. ولعل ما يتضمنه ويحتويه البورتريه "المزِين" لغلاف الكتاب نفسه من معاني ودلالات يشهد على هذا القول. إذ إضافة إلى أنه يحفظ لنا ذكرى أساسية في تاريخ الاحتجاجات بالمغرب المعاصر⁽³⁾، فهو يوثق للهموم السياسية لآيت إيدر ولانشغالاته الاجتماعية والتزاماته بأمور الوطن وقضاياها. وبالرغم من الحمولة التاريخية التي تتمتع بها هذه الصورة، وبالرغم من اللغة

التعبيرية التي يحدثنا بها هذا البورتريه الفوتوغرافي عن موضوعه المصور، سواء على مستوى التأطير أو زاوية النظر أو التركيب ما بين عناصر الصورة عموماً، يمكن القول إن التصميم الفني لهذا البورتريه وإخراجه النهائي، والشيء نفسه بالنسبة للغلاف ككل، يكبح معانيه ودلالاته. بل أكثر من ذلك، يمكن القول إن المقاربة المتبعة في تصميم الغلاف تنتمي إلى سجل بصري مغاير عن الأشكال والمحتويات المعتمدة في التصميم المعاصرة الموسومة بالمشاغبة والالتباس والانفتاح. إن مصممه مصمم هاوي تنقصه الخبرة والذوق الفني والجرأة على ركوب صهوة أي مغامرة بصرية تقلص من الحيز الذي يشغله المكتوب في صفحة الغلاف والسلطة التي منحت له، والنتيجة هي أنه قدم للقارئ عملاً محتشماً ونخبولاً. أليس عنوان الكتاب قولاً صريحاً بأن منجز محمد بنسعيد هنا هو الكلام "هكذا تكلم محمد بنسعيد...؟" بمعنى آخر، إنه لا ينشغل بتقديم مادة توثيقية لقارئه تفكر بالصور وتعتبر من خلالها على ما شاهدته عين آيت إيدر وواكبته من أحداث وحروب واغتيالات. وإذا افترضنا جدلاً أن الأمر مطروح من هذا المنظور، فلماذا تلتطخ صفحات الكتاب بكل هذا العدد الهام من الفوتوغرافيات / البورتريهات؟

قد يُؤجل الجواب عن هذه الأسئلة وعن كل ما يتفرع عنها من قضايا وأسئلة فرعية إلى وقت لاحق، وقد لا نجد لها جواباً البتة. لكن في مقابل ذلك، سنحاول التركيز على فهم ما تنسجه خيوط بورتريه غلاف الكتاب من قصديات ومعاني وذلك من خلال استنطاق لغته وأسلوبه ثم استعاراته، ومن خلال إثارة بعض الأسئلة الخاصة بالعلاقات والصلات الممكنة التي تربط هذا البورتريه بملفوظ العنوان ثم ببورتريهات الصفحتين المذكورتين أعلاه(4)، ومن حين لآخر بباقي العناصر المؤثمة لمساحة الغلاف كالانتشار المبالغ فيه لهذا النوع من اللون الأزرق وقصديات اختياره دون لون آخر. إن ما يميز هذا

البورتريه، مقارنة مع البورتريهات الشخصية الأخرى، هو التقاط الموضوع المصور في محيط خارجي ومفتوح وفي واضحة النهار. أي ما يطلق عليه في تعريفات القواميس المتخصصة في الصورة وضمنها الفوتوغرافيا بورتريه في محيطه *Portrait dans son environnement*. نتساءل، هل هذا من باب المصادفة فقط، أم يتعلق الأمر حقاً بمحاولة تمثيل آيت إيدر في محيطه الطبيعي، أي الفضاء العمومي وتحديد الشارع المغربي، حيث يوجد زاده من الهواء والماء والتراب؟ إن ما يميز هذا البورتريه، ليس هو إبراز ملامح الوجه وخطوطه من جهة، ولا تبيان الجانب اللباسي من جهة ثانية، كما تطلعتنا على ذلك مجموع البورتريهات الشخصية المثبتة على صفحات الكتاب، وإنما المراهنة على تخليد لحظة التّفّ فيها المناضلون وتجمّع فيها المتعاطفون وتجمهر فيها الحشود حول قائدهم التاريخي وزعيمهم السياسي. كل ذلك رغبة في الإنصات إلى خطابه المدوي والاستمتاع بكلامه الجميل والمحبيب الذي لا تضجر من استماعه الجموع. والذي زاد من تضخيم حجمه وتقوية صدها الميكروفون، ميكروفون مكبر الصوت، الذي تحمله يده اليمنى.

هكذا، يعترينا إحساس بأن البورتريه الذي تم توظيفه كإداة بصرية للتوضيح، لم يتم التفكير فيه إلا في مرحلة متأخرة من فترات تصميم الغلاف. وذلك بالرغم من كثافة عناصره وزخامها، سواء على مستوى الهيئة أو الحركات أو الأفعال التي تجسدها وضعة آيت إيدر في هذا البورتريه. وقد يكون ذلك بعد اختيار عنوان الكتاب والموافقة أو التوافق عليه. ذلك أن الإحساس الذي يتركه فينا تصميم هذا الغلاف ومختلف أشكاله الكرافيكية والبصرية، هو امتداح وتعظيم فكرة "التكلم" التي تحضر هنا بجرسٍ ضخم ونبر عال. ومما قد يفسر كذلك احتمال أن التفكير في المستوى اللفظي كان سابقاً على المستوى الأيقوني، سواء بوعي أو بلاوعي، هو الدور الذي يقوم به هذا النص المكتوب، أي العنوان، على

مستوى التحكم في توليد المعنى. فالصيغة التي يتقدم بها هذا الأخير والآليات التي يشتغل بها، تحدد، إن لم نقل تفرض ضمناً، زاوية القراءة كما ترسم حدود إنتاج معاني هذه الأخيرة. كل ذلك كي لا يُفسح المجال للتأويلات المتعددة، وحتى لا تُترك الفرصة للقراءات المنزاحة عن قصدية الملفوظ. إن وظيفته هي محاولة كبح أي تأويل قد يستنتج أو يفهم بقصدية أو بدونها لحظة استقبال الغلاف. بل أكثر من ذلك، إنه يقوم بتوجيه القارئ نحو الكيفية والطريقة التي ينبغي بها قراءة المكونات التي تؤمته وخاصة البورتريه الذي وظف للايضاح ومن ثم قراءة محتوى الكتاب. بمعنى آخر، إنه يؤدي دوراً أو بالأحرى يقوم بوظيفة الترسيع l'ancrage. بارث، رولان. (1982): 31-33.

وإذا حاولنا استنطاق الجزء الأول الذي يتكون منه هذا العنوان، ووقفنا عند معجمه واشتقاقاته وتراكيبه ومعانيه، فسنجد في القاموس العربي أن حرف "هكذا"، الذي يجمع ما بين التنيبه (الهاء) والتشبيه (الكاف) والإشارة (ذا) والذي يقابل في تفسيره عبارة "على هذا المنوال" أو "على هذا النحو"، هو حرف يُستعمل في اللغة للتعبير عن صيغة المبالغة، إضافة إلى وظيفته النحوية واسهامه في تهذيب أسلوب الجملة وتركيبها. أما كلمة "تَكَلَّمَ" فإنها تفيد ما معناه، نَطَقَ معنى وتحدَّثَ كلاماً أي قولاً. كما يُقصدُ بها الفصاحة ثم النصيحة كما يخبرنا بذلك النص الديني من خلال قصة موسى الذي كَلَّمَهُ اللهُ تكليماً. الفيروزآبادي. (1983): 172. والجمع بين هذين العنصرين، يحيلنا على معنى جديد يفيد الإثارة في كل ما من شأنه الرفع من قيمة الشيء أو الإنسان أو غيرهما. وفي حالتنا هذه، يكون استعمالهما من أجل التأكيد الضمني على قيمة الكتاب وصاحبه. وهذا ليس بغريب على رجل من طينة آيت إيدر؛ ذلك أن كل ما سيحدثنا عنه في هذا الكتاب، لن يكون سوى كلام خير وبديهي وصاعق حسب المصمم. والخلاصة أن لأثر هذا المكتوب دوراً بليغاً

وحاسما في ذهن الذات المدركة لهذا الغلاف، وخاصة في تلقي هذه الصورة الفوتوغرافية ومحاولة فهم مضامينها. فهو يقوم بدور التوسط ما بين ما نقلته عين الفوتوغرافي والنظرة التي سنتلقى بها عين المشاهد هذا المدرك البصري. ف"لا يمكن للصورة الفوتوغرافية (كل الصور في واقع الأمر) في تصور بارث دائما، أن تحضر في العين إلا من خلال تقطيع مفهومي سابق، أي ضمن توليفة لغوية هي التي تكشف عن مضمون ما يتم تمثيله. بل لا يمكن إدراك الصورة إلا ضمن لبوس لغوي، فهو الذي يُجلي مضمونها ويُسرها إلى الذهن في شكل دلالات". وإذا لم يحصل هذا التدليل بالتزامن، فإن الأمر سيكون دالا على خلل في الإدراك أو على تساؤل أو قلق أو صدمة يُحدثها الموضوع المدرك عند المتلقي". فلن يصبح ما يأتي إلى الذهن عبر العين قابلا للتعقل إلا إذا تسرب إلى اللغة واستوطن عوالمها، وخارجها سيظل مجرد أحاسيس غامضة". بنكراد، سعيد (2019): 70. لكن إذا أمعنا النظر قليلا في هيئة هذا البورتريه وتوقفنا برهة عند عناصره الأيقونية والتشكيلية، ألا يجب، في جانب كبير من مستوياته، عن مواصفات البورتريه السياسي المطلوبة في مثل هذه المناسبات؟ ولنتخيل أن هذا البورتريه منحت له بدوره المساحة نفسها التي احتكرها النص المكتوب، هل سيكون وقعه آنذاك على المشاهد بالتأثير نفسه أم سيخلق حتما أثرا مغايرا؟ إن قليلا من التأمل في التأطير الذي استعمل في تشخيص بورتريه آيت إيدر، يساعدنا كثيرا على تمثيل ملامحه والتعرف على انفعالاته وتبيان مميزاته وخاصة إدراك كاريزميته. بل أكثر من ذلك، تقربنا اللقطة القريبة Plan rapproché الموظفة هنا منه أكثر. وذلك من خلال تمثيله منشغلا في إلقاء خطبة، وبصوت مبسوح، على الجماهير الغفيرة الممثلة من مختلف الأعمار والتي حجت إلى مكان التجمع وربما امتد ذلك أيضا إلى المارة. كذلك تخبرنا هذه اللقطة الأفقية بأن اللقاء قد تم خارج أسوار مقر الحزب، وذلك من

خلال الياظفة الموجودة في المستوى الخلفي للصورة والمتدلية على حائط بناية تحمل اسم "الحزب الاشتراكي الموحد". كما تنقل إلينا من جانب آخر، الأجواء التي طبعت هذا العرس السياسي وعلى حرارة الحدث وطقسية الاحتفاء، والتي بلغت في مرحلة من فصولها درجة سيحمل فيها الزعيم على أكتاف الجماهير تعبيراً عن الوفاء والعهد والإخلاص والاعتراف لما قدمه من تضحيات جليلة وأيضاً دعماً لسموده في مواقفه السياسية وثباته في اختياراته الإيديولوجية، وهي كذلك صورة تذكرنا بالاستقبالات التي تخصص عادة للأبطال الذين حققوا الانتصارات وبرعوا في المنجزات. إن مختلف العناصر الممثلة داخل الحقل المصور تعلي من حضور الزعيم البطل كما تشهد على ذلك حجم قاعدته الجماهيرية ذات الحضور المتنوع، وكما يشهد على ذلك أيضاً حجم امتداداته وانغراسه في المجتمع. فحتى تضبيب النص المكتوب في المستوى الثاني من الصورة، لم تكن الغاية منه سوى الإسهام في تسليط الضوء أكثر على الموضوع الرئيس، وخاصة على عينيه اللتين تمنعان بنظراتهما إلى خارج الحقل وكأنيهما تتطلعان إلى عهد جديد قادم وبدماء جديدة وربما هي استدعاء لاستشراف مستقبل مضيء أو هو فقط اختيار، بوعي أو لا وعي، أقدم عليه المصمم حتى ينسجم مع اتجاه وحركة تصفح الكتاب. ولمكر المصادفة جاء هذا الأفق الذي تعبر عنه عيناه من خلال وضعتهما واتجاه نظرتهما في الدرجة والمكانة التي استوت عليه يافظة الحزب في خلفية الصورة؛ لدرجة أن هذا التراكب يعطينا الانطباع وكأن تلك المهموم والتطلعات والمصير التي يحدثنا عنها آيت إيدر عنونها هو شعار تلك الياظفة؛ لكن الشيء الوحيد المؤكد من هذا الحضور اللفظي هو وفاء ملتقط الصورة لتقاليد الفوتوغرافيا الصحافية، وذلك من خلال العمل فوتوغرافيا على تعيين وتحديد مكان اللقطة. ومما يساعد أيضاً على إبراز الموضوع واحتلاله هذه المكانة في الصورة، هو تطبيق تقنية قاعدة الأثلاث

الثلاثة أثناء التقاط هذا البورتريه، التي تمنح عين الرائي متعة وراحة ويسرا أثناء تلقيه للموضوعات الممثلة في الصورة وكذا طريقة توزيع العناصر على مساحتها. ويبقى أهم عامل يقوم بشد العين إلى موضوع البورتريه، سواء على مستوى الأشكال أو المحتويات، هو طبيعة التأطير الذي انتقاه الفوتوغرافي وأبدع فيه، والذي يخلق نوعا من الحميمية والألفة بين شخصية آيت إيدر والمشاهد، بل يستدرج هذا الأخير إلى أن ينصت أكثر إلى حركات الموضوع المصوّر وأن يهتم بنظراته وأن يركز على أفعاله وأن يدقق في تعبيرات ملامح وجهه وجسده ككل، وأيضا الانشغال بمؤنثات محيطه بكل حذافيره وجزئياته. أي إبداء رغبة وشوق أزيد في التعرف على الزعيم وعلى مقاصده وعلى كل الأشياء التي تخص تفاصيل شخصيته وربما حياته. لكن بالرغم من الفسح الفنية والتأويلات الدلالية الممكنة التي يوفرها هذا البورتريه الفوتوغرافي وبالرغم أيضا من الأحياز البصرية التي يغدق بها، فإن العين تشعر وهي تتلقى حالة هذا الغلاف وشكله بالاحتباس والاختناق. أكثر من ذلك، إن اللون والخطوط وبند الخط وشكله المستعمل والأسلوب التناظري Symétrique الذي سلكه المصمم في بناء عناصر الغلاف وإخراج مساحته، كلها عوامل تُقوّض من السجل الإيحائي لهذا البورتريه ومن ثم القيمة الفنية لغلاف الكتاب ككل؟

إن الأشياء التي غابت عن ذهن المصمم، أو ربما سقطت سهوا أثناء مراحل إنجازها لتصميم غلاف الكتاب، هي أن عين المشاهد، وهي تتلقى المضامين والأشكال البصرية، التي يحتويها الغلاف بطريقة تصريحية أو مضمرة، تتجاوب مع ما تشاهده وتستجيب له وفق ما راكمته ذاكرتها وتجربتها من خبرة بصرية. فالعين، كمجمل الحواس، تمتلك وتمتع بما يكفي من المعرفة والدربة والتجربة التي تؤهلها للقيام بالتفصيل والتقطيع والتجزئ والانتقاء لكل ما تشاهده. وإنه بناء على هذه السيرورة التفاعلية، تقوم بتمثيل الأشياء في

ذهن المشاهد كما تساعده على التعرف، بشكل تدريجي، على عناصرها وأحجامها وإحاطاتها وألوانها. ومن خلال هذه التجربة البصرية أيضا، يتمكن المشاهد من تحقيق الألفة والتجاوب والمتعة والانشراح مع ما يراه ويدركه من صور ورسوم ومنحوتات ومشاهد أو يحصل عكس ذلك، فتقع الخيبة والنفور. بعبارة أخرى، إن الرهان على الخطاب البصري في الإبلاغ والتواصل وتحقيق المتعة والاستمتاع وإثارة الحواس، في مثل هذه المناسبات، أي إنتاج بورتريه عن زعيم سياسي بمفردات بصرية، لا يقل قيمة عن نظيره اللغوي. وذلك ما لم يتحقق في حالة هذا الغلاف، لأن العين بمجرد ما تحاول النظر بتمعن في درجات اللون الأزرق، أي الأزرق البروسي *Bleu prusse* والأزرق الطاووسي *Bleu paon*، الذي يكسو الغلاف ويهيمن على مساحته حتى تشعر بالقنوط والانقباض. قد نتفهم رغبة المصمم وقصديته في احترام وإعادة إنتاج أحد اللونين الموجودين بقائمة الألوان التي يعتمدها مُمَيِّز "مركز محمد بن سعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات"، الذي يعيد بالمناسبة توليد الأفكار نفسها التي تحيل عليها معاني البورتريه توليدا مكثفا. لكن طريقة توزيع اللون هنا وطلاءه على شكل خط قطري *En diagonal* لا يمكن أن يُنتَج عنه سوى الإحساس بالتناظر الذي يولد بدوره الرتابة والسكون في النفس. ألم يشكل اللون في ثقافات متعددة أولى اللغات التي نخطب بها النفوس والأحاسيس والوجدان؟ إن عين المشاهد، حين تلتقي هذا اللون، تصطدم به ثم تتلطح به؛ بعد ذلك تطمس كل النقاط والخطوط والحركات والأشكال والأحجام والكتل التي يجبل بها الغلاف، كما تتوارى أمامه باقي الألوان. إن تعبيرات الأمل والتغيير والانتماء والتعاقد والحلم بما هو أفضل، وهي الفكرة نفسها التي يحاول التعبير عنها بورتريه الزعيم هنا وأيضا مضامين الكتاب، التي عودتنا عليها

المعاني الثقافية والدلالات الرمزية لبعض تدرجات اللون الأزرق تنهار وتلاشى أمام صلابة هذين اللونين.

وانطلاقاً من هذه الهفوات في اختيار الأشكال والألوان والخطوط وهاته التذبذبات في انتقاء المحتويات والمعاني والدلالات، يمكن القول إن غلاف كتاب "هكذا تكلم محمد بنسعيد..." فقد الكثير من سلطته على الافتتان ومن ثم ضيع فرصة الإغراء المطلوبة في مثل هذه المناسبات. لقد نسي المصمم بأن الدور الأساس للغلاف، علاوة على التلخيص والإيضاح، هو القيام بدور الواجهة التي تقدم محتويات الكتاب والتعريف به، أي واجهة للإبلاغ والتواصل. إن الترسنة البصرية التي استعان بها المصمم في إخراج هذا الغلاف، طمست مختلف الإيحاءات والاستعارات التي يزخر بها بورتريه آيت إيدر موضوع الكتاب. لقد تحولت وظيفة الفوتوغرافيا هنا إلى لعب دور التشخيص الحسي والإيضاحي لكلمة تَكَلَّمَ ولمعانيها. وكأن دور الغلاف هو تحقيق التطابق بين ما تستثيره الكلمات وما تمثله الصور، وضمنها الصور الفوتوغرافية، من عوالم وأكوان ثقافية. وتلك مشكلة تعيدنا ثانية إلى إثارة سؤال العلاقة بين المرئي والمكتوب وتمثيلاتهما وتمثلاتها عند نخبتنا.



هوامش:

1- الكتاب صادر عن منشورات مركز محمد بنسعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات سنة 2018، يقع في 425 صفحة وهو من إعداد وإخراج عبد الرحمن زكري. وقد بلغ عدد الفوتوغرافيات المستعملة للإيضاح فيه مائة وستا دون احتساب تلك التي تمثل وثائق إدارية أو تلك التي استعملت لتزيين غلاف الكتاب. وللإشارة، فهذه القراءة تمتع عن

مناقشة الأفكار والمعطيات والأحداث والأحكام التي يثيرها الكتاب. أولاً، لأنها لا تمتلك الزاد المعرفي والفكري والتاريخي الكافي لذلك. وثانياً، لأنها رسمت لنفسها، منذ البداية، حدود مجال اشتغالها واهتمامها وتقصد بذلك أساساً الجانب البصري وتحديد البورتريه الشخصي لمحمد بنسعيد آيت إيدر.

2- بالرغم من كل الملاحظات الممكنة، يمكن اعتبار البورتريهات الشخصية وكذا الفوتوغرافيات الإيضاحية التي تملأ صفحات الكتاب أو تزين غلافه وفقراته مؤشراً على تشكل وعي بالدور التاريخي للفوتوغرافيا، وكذا تعبيراً عن نضج في وعي الكاتب بقيمتها كوثيقة بصرية تسجيلية أساسية في توثيق الأحداث والمناسبات والوقائع التاريخية، وخاصة في كتابة التاريخ السياسي المعاصر للمغرب، أو على الأقل الإسهام بقسط في كتابة بعض فصوله.

3- يعود تاريخ التقاط هذه الصورة إلى فترة احتجاجات شباب "حركة 20 فبراير"، وتحديدًا احتجاج يوم 13 مارس 2011 بالدار البيضاء. إن ما يبرر اختيارها في ظننا هو تلك الرسالة الموجهة من لدن آيت إيدر إلى شباب هذه الحركة والتي تضمنته الفصول الأخيرة من الكتاب. وللإخبار فهذه الفوتوغرافيا لا تحمل اسم ملتقطها وإنما تقتصر فقط على البياض الذي يحيل على اسم وكالة الفوتوغرافيا المغربية آيس بريس AIC Press.

4- إن ما يميز هاتين الفوتوغرافيتين، هو أن البورتريه الثاني يمثل أول بورتريه التقط لآيت إيدر مباشرة بعد استقراره بمراكش، أي بداية تشكل الوعي المدني عنده. وهو من باب "المصادفة" أول صورة تطل علينا من الكتاب أي قبل الشروع في حكي قصة حياته. أما البورتريه الثالث فيجسد بورتريه متنكر وهي إحالة صريحة على الظروف الحياتية الحالكة التي مر منها الموضوع المصور في فترة من فترات حياته؛ هذا من جهة، وهي تعبير عن الوضع السياسي ووضعية الديمقراطية خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب من جهة ثانية. يمكن العودة في هذا الباب لمفتاح La légende الفوتوغرافيتين لاستخراج المزيد من الدلالات.

بيبلوغرافيا

- الفيروزأبادي. (1983). القاموس المحيط؛ المجلد الرابع، منشورات دار الفكر، بيروت، مصر.
- بنگراد، سعيد. (2019). تجليات الصورة، سيميائيات الأنساق البصرية؛ منشورات المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب.

Barthes, Roland. (1982). L'obvie et l'obtus, Essais critiques III ; Ed. Seuil, Coll. Point Essais, Paris, France. –